المحاضرة الثالثة: الصحافة مصدر لدراسة التاريخ

تعد الصحافة من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحث في دراسة التاريخ لما تحمله من تسجيل مباشر للأحداث والوقائع في لحظتها الزمنية، فهي تعكس نبض المجتمع وتجسد التحولات السياسية والإجتماعية والثقافية التي عرفتها الأمم عبر مختلف المراحل التاريخية، ولا تقتصر أهمية الصحافة على نقل الأخبار فحسب بل تتجاوز ذلك إلى توثيق مواقف الرأي العام واتجاهات الفكر وصور الحياة اليومية مما يجعلها مرآة عاكسة لواقع تاريخي معين، ومن هذا المنطلق اكتسبت الصحافة مكانة بارزة كمصدر تاريخي لا غنى عنه في إعادة بناء الماضي وفهم سياقاته العامة.

1. التاريخ والصحافة (المفهوم والممارسة)

يعد التاريخ علما يهتم بدراسة الماضي الإنساني من خلال تتبع الأحداث والوقائع وتحليلها في سياقها الزماني والمكاني قصد فهم مسار تطور المجتمعات وتحولاتها المختلفة يقول **إبن خلدون "إن فن التاريخ محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت ينفيان بصاحبها إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذ اعتمد فيها على مجرد النقل ....فربما لم يؤمن فيها من العثور وزلة القدم"**[1]، فلا يقتصر مفهوم التاريخ على مجرد سرد الوقائع بل يتجاوز ذلك إلى وجوب التحقق من صدق الخبر.

يتقاطع التاريخ والصحافة في كونهما يشتركان في الإهتمام بالحدث الإنساني وتوثيق الوقائع المرتبطة به في زمان ومكان محددين، فالتاريخ يسعى إلى دراسة الماضي وتحليله وتحويله إلى معرفة علمية قائمة على التفسير والاستنتاج في حين تعمل الصحافة على تسجيل الأحداث آنيا ونقلها إلى الرأي العام " **فالصحافة هي مرآة للحياة في المجتمع بجميع أنشطته وهي سجل للوقائع يوما بعد يوم، والتاريخ ليس هو إلا صحيفة جامعة"** [2] ، فرغم اختلاف المنهج والغاية بينهما إلا أن الصحافة تعد رصيدا ماديا للتاريخ، إذ توفر للمؤرخ مادة أولية تسهم في فهم السياقات السياسية والاجتماعية والثقافية للفترات المدروسة .

---

[1] زهير إحدادن، الصحافة المكتوبة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص10.

[2] المرجع نفسه ، ص 11.

تجمع بين المؤرخ والصحفي صفات ومنهجيات مشتركة في البحث والنقد، إلا أن الفارق الجوهري بينهما يكمن في عامل "الزمن"؛ فبينما ينكبّ المؤرخ على دراسة الماضي بتأنٍ يمنحه عمقاً ونضجاً واكتمالاً لعدم تقيده بمواعيد نهائية صارمة، يجد الصحفي نفسه محاصراً بضغوط اللحظة الراهنة ومطالباً بالسرعة لمواكبة الحاضر واستشراف المستقبل، مما قد يضطرّه أحياناً لتقديم نتاج يتسم بالضحالة مقارنة بالعمل التاريخي، رغم أنه قد يمارس دور المؤرخ حين يستدعي أحداث الماضي في سياق تغطياته[1].

2. أهمية الصحافة في التوثيق التاريخي

تُعدّ الصحافة من أبرز المصادر التاريخية في العصر الحديث، إذ تحولت من مجرّد وسيلة إخبارية إلى مدوّنة يومية تحفظ وقائع الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، " **فهي تستوعب الكثير من مفردات المادة التاريخية لحياة أي مجتمع كما أنها المرآة التي تعكس أهم تفاعلاته وحركته**"[2]، مما يجعلها أداة أساسية للمؤرخين في إعادة بناء الأحداث. فهي لا تقتصر على تسجيل الوقائع الآنية بل تعكس الرأي العام، الاتجاهات الفكرية، والتحولات الاجتماعية، كما في حالة الصحافة الجزائرية خلال الاستعمار التي وثّقت مقاومة الحركة الوطنية وفضحت سياسات الاحتلال.

رغم التحفظات المنهجية التي تلاحق الصحافة كمصدر تاريخي، وما يكتنف رواياتها أحياناً من شائبات أو مبالغات تمليها طبيعة العمل الصحفي السريع، إلا أنها تظل وثيقة تاريخية متفردة لا يمكن للمؤرخ المعاصر الاستغناء عنها. فالتاريخ لا يُكتب فقط من الوثائق الرسمية الجافة، بل يحتاج إلى "روح العصر" التي تجسدها الصحف عبر تقديم صورة بانورامية وشاملة لمختلف جوانب الحياة اليومية، السياسية والاجتماعية والثقافية. إن قراءة الصحف تمنح المؤرخ قدرة استثنائية على معايشة الزمن الذي يدرسه، والاطلاع على نبض الشارع وتفاعل الجماهير مع الأحداث في لحظة وقوعها، وهو ما يجعل الصحافة، برغم كل ما عليها من مآخذ، أداة لا تُضاهى في إعادة بناء المشهد التاريخي بجميع أبعاده الإنسانية وتفاصيله الحية [3].

---

[1] ينظر: محمد سيد محمد، الصحافة بين التاريخ والأدب ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1985م، ص 23.

[2] أمين محمد علي الجبر، دور الصحافة في توثيق التاريخ وصياغته – دراسة نماذج من الصحافة اليمنية–، مجلة دراسات، ع 59، 2023، ص 140.

[3] ينظر: محمد سيد محمد، الصحافة بين التاريخ والأدب، ص 23.

أسهم الإستعمار الأوروبي في جعل الصحافة واحدة من أهم وسائل التوثيق التاريخي في العالم العربي، إذ اعتمدت القوى الاستعمارية على إصدار جرائد ومطبوعات موجهة للسكان المحليين من أجل بسط نفوذها ونشر خطابها السياسي والإيديولوجي يقول فضيل دليو: " **إن الصحافة في معظم دول العالم العربي وليدة التواجد الإستدماري الذي عمل على التحكم في الرأي العام المحلي وتوجيهه لخدمة الأهداف الإستدمارية عن طريق إنشاء صحف ومجلات بأكثر من لغة**"[1] ، وهو ما حدث في الجزائر مع صدور جريدة "المبشر" في منتصف القرن التاسع عشر كأول تجربة صحفية عرفها الجزائريون. غير أن النخب العربية سرعان ما استثمرت هذه الأداة الجديدة، فأسست صحافة وطنية وإصلاحية جعلت من الجريدة منبرًا لمناهضة الاستعمار وفضح ممارساته وتوثيق تفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية في تلك المرحلة، فتحولت الصفحات الصحفية إلى أرشيف تاريخي حي يسجل معاناة الشعوب المستعمَرة ومسار نضالها من أجل الحرية والاستقلال.

3. حدود التوثيق الصحفي وشروط توظيفه في كتابة التاريخ

تُعدّ المادة الصحفية من أهم المصادر الحديثة التي يعتمد عليها المؤرخون في إعادة تركيب أحداث الماضي، غير أنّ هذا النوع من التوثيق يطرح إشكالاته الخاصة لأنه مرتبط بسياقات سياسية وإيديولوجية واقتصادية تؤثر في طريقة تناول الخبر ومعالجته. فالصحيفة ليست مرآة محايدة للواقع، بل هي منتوج مؤسسة لها خطّ تحريري، وجمهور مستهدف، وضغوط مهنية وسلطوية، ما يجعل التوثيق الصحفي بحاجة دائمة إلى قراءة نقدية قبل توظيفه في كتابة التاريخ. ومن هنا تبرز ضرورة الحديث عن حدود التوثيق الصحفي من حيث المصداقية والموضوعية والاستمرارية، ثم الوقوف عند الشروط المنهجية التي تسمح بتحويل المادة الصحفية من مجرد أخبار آنية إلى وثائق تاريخية موثوقة يمكن الاعتماد عليها في دراسة تطور المجتمعات وتحولاتها عبر الزمن.

تتمثل أبرز شروط التوثيق الصحفي في ضرورة إخضاع المادة الخبرية لعمليات فحص دقيقة تعزل الحقيقة عن الشائعات، مع التركيز على تجريد الرواية من الانحيازات الأيديولوجية أو الصبغة الدعائية التي قد تفرضها سياسة الوسيلة الإعلامية. ولأن "**التاريخ والصحافة يجمعهما بالضرورة هدف واحد: التعريف بحقبة ما، حدث ما، تطور ما؛ فعلى الصحفي الاقتداء بالمؤرخ المجدد في**

---

[1] فضيل دليو، مقدمة في وسائل الإتصال الجماهيرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1998، ص101.

الاشتغال على ذاته للرفع من مستوى تكوينه وتطوير مهاراته وأدوات عمله" [1]، فإن حدود توظيف الصحافة في كتابة التاريخ تتوقف على مهارة الباحث في مضاهاة الأخبار بمصادر موازية، والتعامل معها كرؤية أولية تحتاج إلى تمحيص وتأنٍّ لضمان تحويل الخبر السريع والمؤقت إلى وثيقة تاريخية رصينة تتسم بالموضوعية والعمق.

ولضمان الإستفادة العلمية الموثوقة من الصحف كمصدر للأحداث التاريخية، يجب على المؤرخ الإلتزام بالشروط والضوابط المنهجية التالية عند توثيقها:

* التحقق من موثوقية الصحيفة ومعرفة توجهها بغرض معرفة مدى حياديتها أو انحيازها.

* االفصل بين الحقائق المجردة(الوقائع) والتحليلات أو الآراء الشخصية للصحفي.

* عزل المحتوى عن أي عاطفة أو أهداف دعائية

* التحقق من مصداقية المعلومات الصحفية بمقارنتها بوثائق رسمية .

وصفوة القول أن الصحافة تعد "المسودة الأولى للتاريخ" وأحد أهم المصادر الحية التي تمنح المؤرخ مادة غنية تتجاوز جفاف الوثائق الرسمية، فهي لا تكتفي بنقل الأحداث بل ترصد "روح العصر" وتفاصيل الحياة اليومية، والاجتماعية، والثقافية التي لا تدوّنها السجلات الحكومية. وتكمن أهمية الصحافة في قدرتها على جعل المؤرخ يعايش الحقبة التي يدرسها وكأنه جزء منها، مما يوفر له نظرة شاملة وبانورامية للمجتمع. ورغم ما قد يشوب المادة الصحفية من شوائب ناتجة عن عامل السرعة أو الانحيازات الأيديولوجية، إلا أن قيمتها تظل ثابتة كوثيقة متفردة، بشرط أن يُخضعها المؤرخ لمشرط النقد والتمحيص، ليحول الخبر اليومي العابر إلى مادة تاريخية رصينة تساهم في إعادة بناء الماضي بدقة وواقعية.

---

[1] الطيب بياض، الصحافة والتاريخ –إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن– ، ص 51.